البـــاب الأول

نبذة عن حياة
الإمام سفيان الثوري وعصره

الفصل الأول
حياة الإمام سفيان الثوري

المبحث الأول: نسبه وأسرته:

هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله ابن موهبة بن أبي عبد الله بن مُنقذ بن نصر بن الحكم بن الحارث بن ثعلبة بن عامر بن ملِكان بن ثور بن عبد مناة بن أُدّ بن طانجة بن إلياس بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان الثوري الكوفي[١]. وقيل إنه من ثور همدان[٢] والصحيح أنه من ثور مضر[٣].

والده:

المحدِّث الصادق سعيد بن مسروق الثوري. قال عنه ابن معين[٤] وأبو حاتم[٥]

---

(١) في نسبه ـ ابن حبيب ـ ذكره في هدية العارفين، البغدادي: ٣٨٧/١، دائرة المعارف، محمد فريد وجدي: ١٧٨/٥، وفي أعلام الزركلي: ١٠٤/٣.
وفي نسبه ـ ابن موهبة بن أبي عبد الله ـ وردت ـ ابن أبي عبد الله ـ في دائرة المعارف، محمد فريد وجدي: ١٧٨/٥. وفيات الأعيان، لابن خلكان: ٣٨٦/٢، تهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٢٢٢/١، تاريخ الإسلام، للذهبي: ٢٢٤.
وفي نسبه ـ ابن الحكم ـ وردت في وفيات الأعيان، ابن خلكان: ٣٨٦/٢.
وفي نسبه ـ ابن معد بن عدنان ـ وردت في وفيات الأعيان، لابن خلكان: ٣٨٦/٢، سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٢٢٩/٧. (تهذيب الكمال في أسماء الرجال، المزي: ١٥٥/١١).

(٢) قاله الداودي في طبقات المفسرين: ١٨٦/١.

(٣) تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للمزي: ١٥٥/١١.

(٤) سنلاحظ في الحواشي ترجمة لبعض الأعلام حسب ما يتيسر وذلك لكثرة من تحدّث عن الإمام الثوري ولكثرة مشايخه وتلامذته.
ابن معين: (١٥٨-٢٣٣هـ) يحيى بن معين بن عون بن زياد المريّ بالولاء، من أئمة الحديث ومؤرخي رجاله، نعته الذهبي بسيد الحفاظ. ومن كلامه: «كتبت بيدي ألف ألف حديث» (الأعلام، للزركلي: ١٧٣/٨).

(٥) أبو حاتم (..-٢٤٨هـ) سهل بن محمد: من كبار العلماء باللغة والشعر، من أهل البصرة، له نيف وثلاثون كتاباً. (الأعلام، للزركلي: ١٤٣/٣).

والنَّسائي[١] إنه ثقة[٢]، وصنفه ابن حجر[٣] في الطبقة السادسة[٤]. وقد روى عن عباية بن رفاعة وخيثمة بن عبد الرحمن[٥] وأبي الضُّحى والشعبي[٦] وطائفة وروى عن الصحابة. وروى له الجماعة الستة في دواوينهم. وحدَّث عنه أولاده سفيان الإمام وعمر ومبارك وشعبة بن الحجاج[٧] وزائدة[٨] وأبو الأحوص[٩] وأبو عوانة[١٠] وعمر بن عبيد الله الطنافسي وآخرون[١١].

مات سنة ست وعشرين ومائة على الراجح[١٢]، وقيل توفي سنة ثمان وعشرين ومائة[١٣].

وقد كان سفيان براً بوالده، «قال يحيى بن اليمان: تجهَّزت إلى مكة وسفيان بها، فقال لي سعيد أبوه: قل لابني يقدم؛ فلقيني سفيان فسألني عنه. قلت: هو

---

(١) النَّسائي: (٢١٥هـ-٣٠٣هـ) أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار النَّسائي، محدِّث، حافظ، ولد بنَّساء سمع الكثير، وتوفي بمكة. من تصانيفه: السنن الكبرى والصغرى. (معجم الأدباء: ٢٤٤/١).

(٢) تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٧٤/٤ .

(٣) ابن حجر: (٧٧٣-٨٥٢ هـ) أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد العسقلاني، المصري المولد والمنشأ والدار والوفاة، محدِّث، مؤرخ، أديب، شاعر، من مؤلفاته: فتح الباري بشرح صحيح البخاري. (الأعلام ٢٠/٢-٢١).

(٤) تحرير تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٤٣/٢ .

(٥) خيثمة بن عبد الرحمن: (٢٥٠-٣٤٣هـ) محدِّث رحل إلى العراق والحجاز واليمن، وصنف وجمع. من آثاره: كتاب «الآحاد». (معجم المؤلفين: ١٣١/٤).

(٦) الشَّعبي: (١٩-١٠٣هـ) عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي الحميري، محدِّث، راوية، فقيه، شاعر، ولد ونشأ بالكوفة، له: الكفاية في العبادة والطاعة. (الأعلام: ٥٤/٥).

(٧) شعبة بن الحجاج: (٨٢-١٦٠هـ): محدِّث، مفسر، ولد ونشأ بواسط وسكن البصرة. من آثاره تفسير القرآن الكريم. (الأعلام: ١/٤-٣) .

(٨) زائدة: (..-١٦١هـ) زائدة بن قدامة الثقفي (أبو الصلت) محدِّث. له من الكتب السنن. (الأعلام: ١٧٩/٤).

(٩) أبو الأحوص: (..-٢٧٩) محمد بن الهيثم بن حماد الثقفي بالولاء البغداد: قاضي عِكبرا. كان من ثقات حفاظ الحديث. (الأعلام: ١٣٢/٧).

(١٠) أبو عوانة: (٢٣٠-٣١٦هـ) يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم بن زيد النيسابوري الإسفراييني الشافعي: مُحدِّث حافظ، من آثاره المسند الصحيح المخرج على صحيح مسلم في الحديث. (معجم المؤلفين: ٢٤٢/١٣).

(١١) تاريخ الإسلام، للذهبي: ١٧١ .

(١٢) تحرير تقريب التهذيب، ابن حجر العسقلاني: ٤٣/٥ وغيرها.

(١٣) الطبقات الكبرى، لابن سعد: ٦/٣٢٠، التاريخ الصغير، للبخاري: ١٢/٢ .

صالح، ويقول لك: أقدم. فتجهز للقدوم، ثم قال: إنما سُمُّوا الأبرار لأنهم بَرُّوا الآباء والأبناء»[1].

جده:

مسروق بن حبيب جد الإمام الثوري شهد موقعة الجمل[2] مع علي بن أبي طالب.

إخوته:

للإمام الثوري أخوان وأخت واحدة. أما أخوته فهم عمر بن سعيد وكان من العلماء الرواة للحديث، روى عن أبيه[3]، وتوفي في حياة الإمام الثوري ويروى أنه: «أصيب سفيان بن سعيد بأخ له يسمى عمر وكان مُقدّماً فلما سووا عليه قبره. قال: رحمك الله يا أخي! إن كنت لسليم الصدر للسَّلف، وإن كنت لتحب أن تخفي علمك ـ أي لا تحب الرياسة»[4].

وله أخ ثان هو المبارك بن سعيد، وكان من رواة الحديث، روى عن أبيه، وكان لغوياً تتلمذ عليه الأصمعي[5]. روى له الترمذي[6] والنَّسائي وأبو داود[7]. وكان مُعيناً لأخيه الإمام الثوري في كل أحواله، ولا سيما في تخفيه، فقد قال عبد

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل، للإمام الرازي: ١٢٥ .

(٢) الجمل: هي الموقعة التي جرت بين علي بن أبي طالب وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنهما ومن قام معها. وكانت سنة /٣٦/هـ وانتهت بانتصار علي وجيشه.

(٣) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٢٣٠/٧ .

(٤) الجرح والتعديل، للرازي: ٦٩/١ .

(٥) الأصمعي: عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن أصمع الباهلي، أديبٌ، لغوي، نحوي، إخباري، محدِّث، فقيه، أصولي من أهل البصرة، من تصانيفه كتاب «الخراج». (الأعلام: ١٨٧/٦).

(٦) الترمذي: (٢١٠-٢٧٩هـ) محمد بن عيسى بن سَورة بن موسى بن الضحاك السلمي الضرير البوغي الترمذي، محدِّث، حافظ، مؤرخ، فقيه، من تصانيفه: الجامع الصحيح. (معجم المؤلفين: ١٠٤/١١-١٠٥).

(٧) أبو داود: (٢٠٢-٢٧٥هـ) سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني، إمام أهل الحديث في زمانه. له السنن جمع فيه (٤٨٠٠) حديثاً. (الأعلام: ١٢٢/٣).

العزيز بن أبي عثمان: «خرجت إلى مكة فبعث معي المبارك بن سعيد إلى أخيه سفيان الثوري بجراب من دقيق، فقال: عجّل به عليّ فإن بنا حاجة إليه، ما أكلت شيئاً منذ يومين»[١].

توفي المبارك سنة (١٨٠) هـ بعد وفاة الإمام الثوري ولم يورِّثه الإمام شيئاً[٢].

وقيل له أخ ثالث اسمه حبيب[٣].

وله أخت واحدة يحبها وتحبه، أخلصت في إعانته في كل أحواله ولا سيما أثناء تخفيه في مكة. قال أبو شهاب الحنّاط: «جلست إلى سفيان وهو في دُبُر الكعبة مستلقٍ فسلمت فردّ. فقلت: إن أختك قد بعثت إليك بشيء فجلس. وقال: لم آكل شيئاً منذ ثلاث»[٤].

وإن حبه الكبير لأخته ومساعدتها له في أحلك أيامه وموت ابنه جعله يعطي كل شيء له لأخته وولدها عمار بن محمد[٥].

والدته:

يظهر أن هذه المرأة امرأة صابرة عابدة[٦] كانت أحد الأسباب التي دعت ووجهت الإمام الثوري للعلم والحديث. فقد ذكر الذهبي أن والدة سفيان قالت له: «يابني! اطلب العلم وأنا أعولك بمغزلي، وإذا كتبت عشرة أحرف فانظر هل ترى في نفسك زيادة في الخير فإن لم تر ذلك فلا تتعنَّ»[٧].

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل، للرازي: ٩١، الطبقات الكبرى، لابن سعد: ٦/٣٧٢-٣٧٣ .
(٢) المعارف، لابن قتيبة: ٤٩٨ .
(٣) مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار، للسبتي: ٢٦٨ .
(٤) تاريخ الإسلام، للذهبي: ٧/٢٣١ .
(٥) تاريخ الإسلام، للذهبي: ٢٢٥ .
(٦) صفة الصفوة، لابن الجوزي: ٣/١٨٩ .
(٧) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٧/٢٤٢ .

زوجته:

تزوج الإمام سفيان الثوري من بنت أم حسان الأسدية وكانت امرأة عابدة زاهدة تحدّث الإمام الثوري عنها ـ قبل زواجه بها ـ حيث دخل عليها وقال لها: «يابنت أم حسان! لَمَ لا تأتين عبد الله بن شهاب بن عبد الله فرفعت إليه رقعة لعله أن يعطيك من زكاة ماله ما تغيّرين به بعض الحالة التي أراها بك؟ فدعت بمَعْجَر[1] فاعتجرت[2] به، فقالت: ياسفيان! لقد كان لك في قلبي رجحان كثير أو كبير فقد ذهب الله برجحانك من قلبي، ياسفيان تأمرني أن أسأل الدنيا من لا يملكها؟ وعزته وجلاله إني أستحي أن أسأله الدنيا وهو يملكها. قال سفيان: وكان إذا جنّ عليها الليل دخلت محراباً لها وأغلقت عليها ثم نادت إلهي..»[3].

وتزوج من امرأة من الكوفة هي التي أنجبت له أولاده. وعاش بلا زوجة أثناء هربه في مكة ثم ألحّ عليه بعض إخوانه بالزواج وعندما وافق إلى ذلك، خطب عليه أحد إخوانه امرأة من كبار أهل البصرة وكان لها مال وشرف، فوافقت على الزواج به، وسافرت إلى سفيان في مكة بحشم، فلما وصلت عند سفيان، قال سفيان: مالي حاجة فيها! إنما سألتك أنْ تزوجني امرأة مثلي. وعندما سئل عن سبب رفضه لها فأجاب: المال. وعندما علمت بذلك عرضت نفسها عليه دون مالها فبقي على رفضه قائلاً: امرأة نشأت في الخير مَلَكَة، لا تصبر على هذا»[4].

ولما هاجر إلى البصرة تزوج أم أبي حذيفة النهدي حين اختفائه فيها[5]، ولم تنجب له.

---

(١) المَعْجَر: ثوب تعتجر به، وثوب يمني، وما ينسج من الليف. (انظر: القاموس المحيط، مادة: عَجرَ). قال في لسان العرب: أصغر من الرداء وأكبر من المِقْنَعة.

(٢) اعتجرت: لفت الثوب على استدارة رأسها ثم تُجَلْبَبُ فوقه بجلبابها. (انظر لسان العرب، مادة: عجر).

(٣) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٩/٧ . وقد ذكر د. محمد رواس قلعه جي أنها أم حسان الأسدية والصواب بأنها بنت أم حسان الأسدية. كما ورد في الحلية.

(٤) تقدمة الجرح والتعديل، للرازي: ٩٠ .

(٥) المعارف، لابن قتيبة: ٢١٨ .

ولده:

يبدو أن حياة التشرد والاختفاء التي عاشها الإمام الثوري جعل عدد ولده قليلاً، وجعل لديه الرغبة بعدم وجود الولد، لما كان يحسُّه من أن الولد يعيقه عن الحركة والسعي وراء عمله كمحدِّث، إضافة إلى أنه يرى أن العيال قد تودي بأخلاق الرجل.

وقد كان للإمام الثوري ابن عزيز على فؤاده، قال عنه سفيان: «مافي الدنيا شيء أحبَّ إليّ منه وإني لأحب أن أقدمه. فمات ابنه ذاك فجعل كل شيء بعد موت ابنه لأخته وولدها»[1].

وقال الحسن بن علي الحلواني[2]: «سألت محمد بن عبيد، أكان لسفيان امرأة؟ قال: نعم! رأيت له ابناً بعثت به أمه إليه فجاء فجلس بين يديه، فقال سفيان: ليت أني دعيت لجنازتك. قلت لمحمد: فما لبث حتى دفنه؟ قال: نعم»[3].

وهذا ماجعل بعض العلماء يعقّب على سيرة الإمام الثوري ويقول أنه لم يُرزق ولداً حيث أن ابنه هذا قد توفي وهو ـ أي الثوري ـ حي.

وكان سفيان الثوري يقول دوماً: «لا يكاد يفلح صاحب عيال» ولربما كان هذا أحد أسباب تمنيه موت ولده. قيل: «مر سفيان بشيخ من الكوفيين كان كاتباً لسفيان الثوري، فقال له سفيان: ياشيخ! وُلِّي فلان فكتبت له، ثم عُزِل ووُلِّي فلان فكتبت له، ثم عُزل ووُلِّي فلان فكتبت له، وأنت يوم القيامة أسواهم حالاً يُدعى بالأول فيُسأل ويُدعى بك فتُسأل معه عما جرى على يدك له، ثم يذهب وتوقف أنت حتى يُدعى بالآخر فأنت يوم القيامة أسوأهم حالاً، قال فقال الشيخ: فكيف أصنع يا أبا عبد الله بعيالي؟ فقال: اسمعوا هذا يقول إذا عصى الله رَزَقَ عياله،

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد: ٣٧٢/٦ .

(٢) الحسن بن علي الحلواني: (...-٢٤٢هـ): نزيل مكة، حافظ، محدِّث له كتاب في السنن. (معجم المؤلفين: ٢٦١/٣).

(٣) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٥٣/٧ .

وإذا أطاع الله ضَيَّع عياله. قال ثم قال سفيان: لا تقتدوا بصاحب عيال فما كان عذر من عوتب إلا قال عيالي»[1].

المبحث الثاني: ولادته ووفاته:

ولد الإمام الثوري ونشأ في الكوفة[2] محلة الأُثَيْر[3][4] ويبدو أنه في الأصل من خراسان[5] فقد قال ابن معين: «بلغني أن شريكاً[6] والثوري وإسرائيل وفضيل بن عياض[7] وغيرهم من فقهاء الكوفة ولدوا بخراسان، كان يُبْعَثُ بآبائهم في البُعوث ويتسرَّى بعضهم ويتزوج بعضهم، فلما نقلوا نقلوهم إلى الكوفة[8].

وكانت ولادته على الراجح على سبعة وتسعين هجرية[9]، عام سبعمائة وستة عشر ميلادية في خلافة الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك[10][11].

---

(١) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٦/٣٨٠

(٢) الكُوفة: بالضم: المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق ويسميها قوم خد العذراء، سميت الكوفة لاستدارتها وقيل سميت الكوفة لاجتماع الناس بها. (معجم البلدان، ياقوت الحموي: ٤/٤٩٠).

(٣) الأثير: كأنه تصغير أثر. صحراء أثير بالكوفة.

(٤) الأعلام، للزركلي: ٣/١٠٤ .

(٥) خراسان: بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق وآخر حدودها مما يلي الهند وتشمل على أمهات من البلاد منها نيسابور وهراة ومرو. (معجم البلدان، ياقوت الحموي: ٢/٣٥٠).

(٦) شريك النخعي: (٩٥-١٧٧هـ) عالم بالحديث، فقيه، اشتهر بقوة ذكائه وسرعة بديهته، كان عادلاً في قضائه (الأعلام: ٣/١٦٣).

(٧) الفضيل بن عياض: (١٠٥-١٨٧هـ) شيخ الحرم المكي من أكابر العباد الصلحاء، كان ثقة في الحديث، أخذ عنه خلق منهم الشافعي، ولد في سمرقند. (الأعلام: ٥/١٥٣).

(٨) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٧/٢٤٢ .

(٩) اختلف العلماء في سنة ولادة الإمام الثوري فقد قال وكيع: ولد سفيان سنة ثمان وتسعين كما ورد في سير أعلام النبلاء: ٧/٢٤٢ . وقال علي بن صالح: ولدنا سنة مائة وكان سفيان أسن منا بخمس سنين هكذا ورد في مشاهير علماء الأمصار (٢٦٨)، وفي تاريخ بغداد: ٩/١٧١ وغيرهما. وقيل ولد سنة ست وتسعين كما ورد في وفيات الأعيان، لابن خلكان: ٢/٣٨٨، والتاج المكلل: ٥١ وغيرهما حيث يأخذ بهذا التاريخ كيتاني Caetani مستنداً في ذلك على مخطوط وحيد: دائرة المعارف الإسلامية (٤٥٠).

(١٠) وفيات الأعيان، لابن خلكان: ٢/٣٨٨، هدية العارفين: ١/٣٨٧، تهذيب الأسماء واللغات: ١/٢٢٢، الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ٦/٥٦، تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/٢٠٦ .

(١١) الخليفة سليمان بن عبد الملك: (٥٤-٩٩هـ) الخليفة الأموي، كان عاقلاً، فصيحاً، طموحاً إلى الفتح، في عهده فتحت جرجان وطبرستان، مدة خلافته سنتان وثمانية أشهر إلا أياماً. (الأعلام: ٣/١٣٠).

قال موسى بن داود[1]: سمعت سفيان يقول سنة ثمان وخمسين ومئة: لي إحدى وستون سنة[2]. وقال الواقدي[3]: «وأخبرني أنه ولد سنة سبع وتسعين»[4].

أما وفاته فكانت على الراجح في شعبان سنة مائة وإحدى وستين[5] هجرية، سبعمائة وثمان وسبعين ميلادية في خلافة المهدي في البصرة[6] وهو مستخف. وقد عاصر في حياته من خلفاء بني العباس: أبا جعفر المنصور (ت ١٥٨هـ)، والمهدي[7] (ت ١٦٩هـ) [8]، وأبا العباس السفاح (ت ١٣٦هـ).

وعلى هذا يكون الإمام الثوري قد توفي عن عمر يناهز الرابعة والستين[9].

---

(١) موسى بن داود الضَّبي: (...-٢١٧هـ): قاضي طرسوس، من العلماء بالحديث، كان مصنفاً، مكثراً، مأموناً. (الأعلام: ٣٢٢/٧).

(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٢٤٢/٧ .

(٣) الواقدي: (١٣٠-٢٠٧هـ) محمد بن عمر بن واحد السَّهمي الأسلمي بالولاء: محدِّث، حافظ، مؤرخ، أديب، فقيه، مفسر. سمع من مالك بن أنس وسفيان الثوري. (معجم المؤلفين: ٩٥/١١-٩٦).

(٤) المعارف، لابن قتيبة: ٤٩٧، الطبقات الكبرى، لابن سعد: ٣٧١/٦، تهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٢٢٣/١، المعرفة والتاريخ، للبسوي: ١٤٩/١، التاريخ الكبير، للبخاري: ٩٢، تحرير تقريب التهذيب، العسقلاني: ٥٠/٢، الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ٥٦/٦، الكواكب الدرية، المناوي: ٢١٥ .

(٥) قيل توفي الإمام الثوري سنة (١٦٢هـ) كما ور د في وفيات الأعيان، لابن خلكان: ٣٨٨/٢، وكذلك أخذ به خليفة في تاريخه إلا أن الذهبي قال عنه أنه وهم. تاريخ خليفة: ٦٨٦/٢، سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٢٧٩/٧، تاريخ بغداد، البغدادي: ١٧٢/٩ .

(٦) البصرة: الأرض الغليظة التي فيها حجارة تقلع. وقيل البصرة حجارة رخوة فيها بياض. وسميت بصرة لغلظها وشدتها. وهي بالعراق. (معجم البلدان، لاياقوت الحموي: ٤٣٠/١).

(٧) المهدي: (١٢٧-١٦٩هـ) محمد بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي العباسي من خلفاء الدولة العباسية أقام في الخلافة عشر سنين وشهراً. كان محمود العهد والسيرة، محبباً إلى الرعية، حسن الخَلْق والخُلُق. (الأعلام: ٢٢١/٦).

(٨) معجم المفسرين، عادل بونهيض: ٢١١/١ .

(٩) دائرة المعارف، بطرس البستاني: ٦٣٣/٩ . وقد قيل عمره ست وستين كما ورد في شذرات الذهب، ابن العماد: ٢٥٠/١، والعبر في خبر من عبر، الذهبي: ٢٣٥/١، والكواكب الدرية، المناوي: ٤١٥/١، وقيل ابن ثلاث وستين كما ورد في الجواهر المضية، لابن أبي الوفاء: ٢٢٩/٢ .

وفيما يروى عن وفاته قال أبو أسامة: «كنت بالبصرة حين مات سفيان الثوري فلقيت يزيد بن إبراهيم صبيحة الليلة التي مات فيها سفيان فقال: قيل لي الليلة في منامي مات أمير المؤمنين! فقلت للذي يقول لي في المنام: الليلة مات سفيان الثوري؟ فقال: قد مات الليلة، وكان قد مات تلك الليلة ولم نعلم»[١].

وقد كان الإمام الثوري يعاني من مرض البَطَن[٢]، وكان يقول في علته: «ذهب التستر، ذهب التستر»[٣]. وقد ذهب إلى الطبيب بمائه عندما اشتد به المرض فقال الطبيب: «هذا بول راهب، هذا رجل قد فتت الحزن كبده، ماله من دواء».

وكان سفيان الثوري يتمنى الموت ليَسلَم من الحكام لكنه لما مرض كرهه، فقد قال عبد الرحمن بن المهدي[٤]: «كان سفيان يتمنى الموت ليسلم من هؤلاء فلما مرض كرهه وقال لي: اقرأ علي (يس) فإنه يقال أنه يخفف عن المريض فقرأت فما فرغت حتى طُفِئ»[٥].

وما كان كُرهُ الإمام الثوري للموت وخشيته منه إلا خوف أن يُسلَب الإيمان في آخر حياته فبينما كان في مرضه في حالات النزع جعل يبكي فقال له رجل: «يا أبا عبد الله أراك كثير الذنوب؟ فرفع شيئاً من الأرض فقال: «والله لذنوبي أهون عندي من ذا، إني أخاف أن أسلب الإيمان قبل الموت»[٦].

وقد ضج الإمام لما تأخر عليه الموت، فقال: «ياموت يا موت». ثم قال: «لا أتمناه ولا أدعو به»، فلما احتُضر بكى وجزع. فقال له عبد الرحمن بن المهدي الذي كان يخدمه أثناء مرضه: «يا أبا عبد الله ما هذا البكاء»؟ قال: «يا عبد

---

(١) حلية الأولياء، الأصفهاني: ٦/٣٥٦ .

(٢) البَطَن مرض يصيب البطْن. بَطِن يبْطَنُ: عظم بطنه من الشّبع. وفي الحديث: المبطون شهيد. انظر: لسان العرب، مادة (البَطْن).

(٣) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٦/٣٧١ .

(٤) عبد الرحمن بن المهدي: الإمام الرضي والزمام العقري ناقد الآثار وحافظ الأخبار. كان للسنن تابعاً وللآراء والأهوءا دافعاً. كان يحفظ عشرين ألف حديثاً. (حلية الأولياء: ٩/٣).

(٥) الجرح والتعديل، للرازي: ١/٦٩ .

(٦) صفة الصفوة، لابن الجوزي: ٣/١٥٠ .

الرحمن لشدة ما نزل بي من الموت، الموت ـ والله ـ شديد»، فمسَّده فإذا هو يقول: «رُوح المؤمن تخرج رَشْحاً، فأنا أرجو».. ثم قال: «اللهم أرحم من الوالدة الشفيقة الرفيقة، إنه جواد كريم وكيف لي أن أحب لقاءه وأنا أكره الموت». فبكى ابن المهدي حتى كاد أن يختنق وهو يخفي بكاءه عنه وجعل يقول: «أوه.. أوه من الموت»[1].

قال عبد الرحمن بن المهدي: فما سمعته يقول: «أوه». ولا يئن إلا عند ذهاب عقله ثم قال: «مرحباً برسول ربي»، ثم أغمي عليه، ثم أُسكِتَ حتى أحدث، ثم أغمي عليه، فظننت أنه قد قضى ثم أفاق فقال: «ياعبد الرحمن، اذهب إلى حمّاد بن سَلَمة فادعه لي فإني أحب أن يحضرني» وقال: «لقّني قول لا إله إلا الله» فجعلت ألقنَه.

قال: وجاء حمّاد مسرعاً حافياً ما عليه إلا إزار فدخل وقد أغمي عليه فقبّل بين عينيه، وقال: «بارك الله فيك يا أبا عبد الله». ففتح عينيه ثم قال: «أي أخي مرحباً». ثم قال: «ياحماد: خذ حذرك واحذر هذا المصرع»[2].

وهكذا طُفئ الإمام سفيان الثوري في دار عبد الرحمن بن المهدي فدخل عليه السلطان فقبّل بين عينيه ثم قال: دعوني أكفنه. فقال له عبد الرحمن بن المهدي: إنه أوصى أن يكفن في ثيابه التي كانت عليه فكفنه السلطان بعد ذلك بكفن بستين ديناراً، وقيل قُوّم بثمانين ديناراً [3].

وقد قام بغسله وكفنه وقبره حسن بن الربيع[4]، وصلَّى عليه عبد الرحمن بن عبد الملك بن أبجر الكوفي[5] بعد أن أوصى الإمام الثوري بذلك لصلاح الرجل[6].

---

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ٧/ ٢٥٠

(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٧/ ٢٥٠-٢٥١ .

(٣) المرجع نفسه: ٧/ ٢٥٠-٢٥١ .

(٤) حسن بن الربيع: الإمام الحافظ الحجة العابد، أبو علي البحلي القسري الكوفي، حدّث عن البخاري ومسلم وغيرهما. (سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٣٩٩).

(٥) عبد الرحمن بن عبد الملك بن أبجر الكوفي: المتقي الأنور الباكي الأغزر. كان شديد التوقي. (حلية الأولياء: ٥/ ٨٤).

(٦) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٧/ ٢٨٧ .

ولشدة ما اتصف به الإمام من جميل الخصال، يقول عبد الرحمن بن المهدي عند الخروج لدفن سفيان وقد دفن ليلاً: «لما أن مات سفيان أخرجناه بالليل من أجل السلطان، فحملناه بالليل فما أنكرنا الليل من النهار»[١]. وقد دفن في مقبرة بني كليب[٢].

وبعد وفاته رحمه الله تعالى رآه كثير من أصحابه في المنام وتلك الرؤى إن كانت تدل على شيء فإنها تدل على مدى فضل ذلك العالم وورعه وعلمه وحسن مآله. نذكر من تلك الرؤى:

قال الوليد بن مسلم[٣]: «رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت: يارسول الله بمن تأمرُ؟ قال: عليك بسفيان الثوري»[٤]. وقال عبد الرحمن بن المهدي: «رأيت سفيان الثوري في المنام فقلت ما فعل الله بك؟ قال: لم يكن إلا أن وُضعت في اللحد حتى وقفت بين يدي الله عز وجل فحاسبني حساباً يسيراً ثم أمر بي إلى الجنة، فبينا أنا أدور بين أشجارها وأنهارها ولا أسمع حساً ولا حركة إذ سمعت قائلاً يقول: سفيان بن سعيد، تحفظ أنك آثرت الله على هواك يوماً؟ قلت: إي والله فأخذتني صواني النِّثار[٥] من جميع الجنة»[٦].

وقال أبو حامد الأحمر: «رأيت سفيان بن سعيد بعدما مات فقلت: أبا عبد الله كيف حالك؟ قال: خير حال استرحت من هموم الدنيا وأفضيت إلى رحمة الله عز وجل»[٧].

وقال سعيد بن الخمس: «رأيت سفيان الثوري في المنام وهو يطير من نخلة

---

(١) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٣٧٢/٦ .
(٢) مشاهير علماء الأمصار، لابن حبان: ٢٦٨ .
(٣) الوليد بن مسلم: أبو حامد الأحمر. كان يجلس في غرفة كاركه الدبس وكان من أولياء الله أولي الكرامات، انتفع بصحبته خلق. (سير أعلام النبلاء: ٥٩٤/١٩).
(٤) الجرح والتعديل، للرازي: ١٢٠/١ .
(٥) النثار: ما ينثر في العرس على الحاضرين.
(٦) صفة الصفوة، لابن الجوزي: ١٥١/٣ .
(٧) تاريخ بغداد، للبغدادي: ١٧٣/٩ .

إلى نخلة وهو يقرأ هذه الآية: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾[1]» [2].

وقال إبراهيم بن أعين البجلي: «رأيت سفيان الثوري في المنام ولحيته حمراء صفراء، فقلت: ما صنعتَ فديتك؟ قال: أنا مع السفرة. قلت: وما السفرة؟ قال: الكرام البررة»[3].

وقال مؤمل بن إسماعيل[4]: «رأيت سفيان الثوري في المنام فقلت له: يا أبا عبد الله ما صنع بك ربك، قال: غفر لي. فقلت: يا أبا عبد الله، ألقيت محمداً ﷺ وحزبه؟ قال: نعم[5].

وقال قَبيصة[6] رأيت سفيان الثوري في المنام، فقلت: ما فعل بك ربك؟ فقال:

نظرتُ إلى ربي كِفاحاً فقالَ لي ... هنيئاً رِضائي عنك يا ابنَ سعيدِ
فقد كنتَ قَوَّاماً إذا أقبلَ الدُّجى ... بَعَبْرَةِ مشتاقٍ وقلبٍ عميدِ
فدونُكَ فاخْتر أيَّ قصرٍ أردتَهُ ... وزُرْني فإني منْكَ غيرُ بعيدِ[7]

وقد رثاه أصحابه فقد قال عبد الرحمن بن المهدي: «جاءني جرير بن حازم وحماد بن زيد من الغد يوم دفنا سفيان فقالا: اخرج بنا فخرجت معهما فبينما نحن نمشي قال جرير بن حازم:

---

(١) الزمر: ٧٤ .
(٢) تاريخ بغدادي، للبغدادي: ٩/١٧٣-١٧٤ .
(٣) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٧/٧٤ .
(٤) مؤمل بن إسماعيل: الحافظ، حدّث عن الثوري وحماد بن سلمة وطبقتهم. وحدث عنه كثير. (سير أعلام النبلاء: ١٠/١١٠).
(٥) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٧/٧٤ .
(٦) قبيصة بن عقبة: ابن محمد بن سفيان بن عقبة بن ربيعة بن جنيدب بن رباب. (سير أعلام النبلاء: ١٠/١٣٠).
(٧) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٧/٧٤ .

مَنْ كـــانَ يبكي على حيٍ لمنزلةٍ بكى الغداةَ على الثوري سُفيانا»

وقال عبد الله بن الصباح[1]

أبكي عليــه وقــد ولَّى وســؤددهُ وفضلُهُ ناضرٌ كالغصنِ ريَّاناً[2]

وقال غياث بن داود: رثى رجل سفيان بعد موته فقال:

لقد ماتَ سفيانُ حميداً مبرّزاً على كلِ قــارٍ هجَّنَتْــهُ المطامعُ

جُــعِلْتُم فــداءً للذي صــانَ دينَه ومــرّ بهِ حــتى حــوَتْهُ المضــاجعُ[3]

المبحث الثالث: أسفاره ورحلاته:

امتازت حياة الإمام الثوري بكثرة ترحاله وتنقله من بلد إلى آخر لسببين:

الأول: كدأب كل محدِّث، كان على الإمام الثوري أن يرتحل ليأخذ الحديث من راويه.

والثاني: الفرار من الحكام والهرب منهم لما كان له من أفكار في لزوم الابتعاد عن مجالس السلطان وتنحيه عن استلام أي منصب في الدولة يمكن ـ في رأيه ـ أن يؤثر على دينه وإيمانه. وقد كلّمه حماد بن زيد في تنحيه عن السلطان وقال: هذا مثل أهل البدع، وما تخاف منهم؟ فأجمع سفيان الثوري وحماد بن زيد على أن يقدما بغداد[4] إلا أن المنية وافته قبل ذلك[5].

---

(١) عبد الله بن صباح: الإمام الحافظ الثقة، وثّقه النسائي وغيره. قيل مات سنة خمسين. (سير أعلام النبلاء ١٢/٢٤٠).

(٢) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٦/٣٧٢ .

(٣) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٧/٧٤ .

(٤) بغداد: أم الدنيا وسيدة البلاد. كان أول من مصّرها وجعلها مدينة المنصور، وكان اختطها أخوه أبو العباس قرب الكوفة وشرع في عمارتها سنة ٤٥ هـ ونزلها سنة ١٤٩هـ. (معجم البلدان، لياقوت الحموي: ١/٤٥٧).

(٥) الطبقات الكبرى، لابن سعد: ٦/٣٧٣ .

كل هذا جعل الإمام الثوري كثير الترحال يسافر إلى بلدان عدة فقد خرج من الكوفة سنة (١٤٤هـ) وقيل سنة (١٥٠هـ)[١] فسكن مكة[٢] والمدينة[٣] سنة[٤]، ثم طلبه المهدي[٥]. وقد قال سفيان الثوري في هاتين المدينتين: «وجدت قلبي يصلح بمكة والمدينة مع قوم غرباء أصحاب بيوت وعباء»[٦].

وخلال وجوده في مكة دخل سفيان على المهدي الخليفة العباسي فقال: سلام عليكم، كيف أنتم يا أبا عبد الله؟ ثم جلس. فقال: حج عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأنفق في حجته ستة عشر ديناراً، وأنت حججت فأنفقت في حجتك بيوت الأموال، قال: فأي شيء تريد؟ تريدأن أكون مثلك؟ قال: فوق ما أنا فيه ودون ما أنت فيه، فقال وزيره أبو عبيد الله: أبا عبد الله، قد كانت كتبك تأتينا فننفذها، قال: من هذا؟ قال: أبو عبيد الله وزيري، قال: احذر فإنه كذَّاب، إني ما كتبت إليك. ثم قال فقال له المهدي: إلى أين يا أبا عبد الله، قال: أعود؛ وكان قد ترك نعله حين قام، فعاد فأخذها ثم مضى، فانتظره المهدي فلم يعد، فقال: وعدنا أن يعود فلم يعد، فعلم أنه عاد لأخذ نعله فغضب، فقال: قد أمِن الناس إلا سفيان الثوري وإنه لفي المسجد الحرام، فذهب فألقى نفسه بين النساء فخبأنه، فقيل له: لِمَ فعلت؟ فقال: إنهن أرحم[٧].

فلما خاف سفيان الثوري بمكة من الطلب خرج إلى البصرة فقدمها فنزل قرب منزل يحيى ابن سعيد القطّان[٨] [٩] وذلك سنة خمس وخمسين ومائة[١٠].

---

(١) دائرة المعارف، بطرس البستاني: ٩/ ٤٥٠ .

(٢) مكة: بيت الله الحرام، سميت مكة لأنها تمكُّ الجبارين أي تذهب نخوتهم وسميت مكة لازدحام الناس بها. (معجم البلدان: ٥/ ١٨١).

(٣) المدينة: هي مدينة رسول الله ﷺ. أما قدرها فهي في مقدار نصف مكة، وهي في حرَّة سبخة الأرض ولها نخيل كثيرة ومياه. (معجم البلدان، لياقوت الحموي: ٥/ ٨٢).

(٤) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٧/ ٢٧٩ .

(٥) الأعلام، للزركلي: ٣/ ١٠٤ .

(٦) الطبقات الكبرى، لابن سعد: ٦/ ٣٧١ .

(٧) وفيات الأعيان، لابن خلكان: ٢/ ٣٨٨ .

(٨) يحيى بن سعيد القطان: يحيى بن سعيد بن فروخ الإمام الكبير أمير المؤمنين في الحديث الحافظ. (سير أعلام النبلاء: ٩/ ١٧٥).

(٩) الطبقات الكبرى، لابن سعد: ٦/ ٣٧٣ .

(١٠) تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٤/ ٢٢٣ .

فحين قدم سفيان البصرة والسلطان يطلبه صار في بعض البساتين وأجّر نفسه على أن يحفظ ثمارها فمرّ به بعض العشارين فقال: من أين أنت يا شيخ؟ قال: من أهل الكوفة. قال: أخبرني رطب البصرة أحلى أم رطب الكوفة؟ قال: أما رطب البصرة فلم أذقه ولكن رطب المسابري بالكوفة حلو. فقال: ما أكذبك من شيخ، الكلاب والبَرُّ والفاجر يأكلون الرطب الساعة وأنت تزعم أنك لم تذقه! فرجع إلى العامل ليخبره بما قال لتعجّبه، فقال: ثكلتك أمك، أَدْرِكْه. إن كنت صادقاً فإنه سفيان الثوري لنتقرب به إلى أمير المؤمنين فرجع في طلبه فما قدر عليه[1].

وقد اضطر أيضاً وهو في البصرة أن يغيّر مكان إقامته طلباً للسلامة حيث لجأ إلى بسر بن منصور السليمي بعد أن خرج من دار عبد الرحمن بن المهدي[2].

وفي البصرة أقبل عليه كثير من الفقهاء ليأخذوا عنه الحديث[3].

ومن البلدان التي سافر إليها بيت المقدس[4] فأقام فيها ثلاثة أيام[5]، قال أبو عيسى الحواري[6]: «لما قدم سفيان الثوري الرَّملة أو بيت المقدس أرسل إليه إبراهيم بن الأدهم: تعال حدثنا، فقيل له: يا أبا إسحق تبعث إليه بمثل هذا! قال: إنما أردت تواضعه. قال: فجاء فحدثهم»[7].

---

(١) وفيات الأعيان، لابن خلكان: ٣٨٩/٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٢٦٦/٧ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، أحمد الشنتناوي: ٤٥٠/١١-٤٥١ .

(٤) بيت المقدس: هي أصغر من مكة وأكبر من المدينة. عليها حصن بعضه على جبل وعلى بقيته خندق، ولها ثمانية أبواب. قال ابن عباس: بيت المقدس بنته الأنبياء وسكنته الأنبياء ومافيه موضع شبر إلا وقد صلى فيه نبي أو اقام فيه ملك. (معجم البلدان: ١٦٧/٥-١٦٩).

(٥) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٢٦١/٧ .

(٦) أبو عيسى الحواري: عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن زياد الأصبهاني الأديب حدّث عنه كثير. بقي إلى حدود سنة ست وسبعين وأربعمائة وكان من بقايا العلماء العباد. (سير أعلام النبلاء: ٥٦٦/١٨).

(٧) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٣٦٧/٦ .

ومن البلدان التي لجأ إليها حين طلبه المهدي صنعاء اليمن[1][2]، يقول سفيان الثوري: «طُلبت في أيام المهدي فهربت فأتيت اليمن فكنت أنزل في حي وآوي إلى مسجدهم، فسرق في ذلك الحي فاتهموني فأتوا بي معن بن زائدة ـ وكان قد كُتِب إليه في طلبي ـ فقيل له: إنه قد سرق منا، فقال: لِمَ سرقت متاعهم؟ فقلت: ما سرقت شيئاً، فقال لهم: تنحوا لأسائله، ثم أقبل علي فقال: ما اسمك؟ قلت: عبد الله بن عبد الرحمن قال: يا عبد الله بن عبد الرحمن ناشدتك الله لما نسبت لي نسبك، قلت: أنا سفيان بن سعيد بن مسروق. قال: الثوري؟. قلت: الثوري. قال: أنت بغية أمير المؤمنين؟ قلت: أجل، فأطرق ساعة ثم قال: ما شئت فأقم وارحل متى شئت، فوالله لو كنت تحت قدمي ما رفعتها»[3].

وفي اليمن تكسَّب بالتجارة إذ كان يقدّم السلع للتجار نظير جُعْل له ثم يسوّي الحساب معهم سنوياً، وبذلك بلغت ثروته آخر الأمر حوالي مائتي دينار، ويذكر ابن قتيبة أن أمواله بلغت عند وفاته ما يقدر بمائة وخمسين ديناراً من السِّلع، غير أن الإمام سفيان الثوري لم يكن آمناً على نفسه من اضطهاد رجال البلاط في بغداد حتى وهو يقيم في اليمن.

وقد ارتحل الإمام الثوري إلى بغداد أكثر من مرة، منها: سفره إليها عندما سافر إلى خراسان لأخذ ميراث له من نسيب له كان ببخارى حيث يروي تلك الزيارة يونس بن أبي يعقوب العبدي قائلاً: «أراد سفيان الثوري الشخوص إلى خراسان لحاجة عرضت له ولزيارة أقاربه فأخفى ذلك عن أصحابه فبلغني عن بعض بطانته ذلك فتجهزت للمضي معه وهو لا يشعر وتجهز بعض أصحابنا بمثل الذي تجهزت به، فلما خرج خرج خفياً فسبقناه إلى بغداد، فلما ورد بغداد أخفى

(١) الكواكب الدرية، للمناوي: ٢١٢/١ .

(٢) صنعاء اليمن: اسمها في القديم أُزال سميت باسم من بناها صنعاء بن أزال، وصنعاء قصبة اليمن وأحسن بلادها. (معجم البلدان، لياقوت الحموي: ٤٢٦/٣).

(٣) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٤/٧ .

نفسه فخرجنا إلى حلوان[1] معه وهو كاره فكنا معه إلى أن عبرنا النهر ووافينا بخارى[2] فأقمنا معه الكثير إلى أن قُضيت حاجته، فتشفّع إليه أقرباؤه بأن يقيم بين أظهرهم أكثر مما أقام، فقال: قد كنت نويت ذلك إلا أنه لا بد من الرجوع فرجعنا معه وأسرع حتى قدمنا الكوفة».

وفي إحدى زياراته إليها روى زيد بن أبي الزرقاء[3]: «رأيت سفيان الثوري ببغداد وقد نظر إلى شيخ جلاَّد يتصدق وقد ذهب بصره فحمل قطعة فأعطاه، ثم قال: ليست هذه صدقة عليك، هذه شماتة بك »[4].

المبحث الرابع: حالته المادية:

نشأ الإمام الثوري في أسرة فقيرة غير أن والدته التي لاحظت نبوغه المبكر وميله إلى أخذ العلم وقدرته على حفظه جعلها تحاول أن تقدم له ما تملك من قدرة على العمل حتى يتفرغ هو لتحصيل العلم الشرعي حيث ورد أنها قالت له: «يا بني! اطلب العلم وأنا أعولك بمغزلي، وإذا كتبت عشرة أحرف فانظر هل ترى في نفسك زيادة في الخير فإن لم تر ذلك فلا تتعنّ»[5].

وبعد أن بلغ الشاب أشده وأصبح عالماً يشهد له، كان من المتعارف عليه آنذاك عطية السلطان لكل عالم، وكان سفيان منهم إلا أن هذا الغلام أخذ العطية مرة واحدة ثم تراجع عن قبولها لعلة عنده أنه لن يستطيع إن أخذ من ذاك المال أن

---

(١) حلوان: هي مدينة عامرة بقرب الجبل وليس للعراق مدينة بقرب الجبل غيرها وهي وبئة ردية الماء بها، فإن ليس في الدنيا مثله، وحواليها عدة عيون كبريتية ينتفع بها من عدة أدواء. (معجم البلدان، لياقوت الحموي: ٢/٢٩١).

(٢) بخارى: من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلّها يعبر إليها من آمل الشَّطّ. كانت قاعدة ملك السامانية، مدينة قديمة قال رسول الله ﷺ: «ستفتح مدينة بخارى محفوفة بالرحمة ملفوفة بالملائكة منصور أهلها، النائم فيها على الفراش كالشاهر سيفه في سبيل الله». فتحها عبيد الله بن زياد في خلافة معاوية. (معجم البلدان: ١/٣٥٤).

(٣) زيد بن أبي الزرقاء: الإمام القدوة أبو محمد الموصلي، حدث عن جعفر بن برقان وسفيان الثوري وأمثالهم. (سير أعلام النبلاء: ٩/٣١٦).

(٤) تاريخ بغداد، للبغدادي: ٩/١٥٢-١٥٣ .

(٥) تاريخ الإسلام، للذهبي: ٢٢٥ .

يواجه السلطان والولاة بجورهم إن جاروا حيث يروى أنه أخذ مرة من بعض الولاة مالاً وصلة ثم ترك ذلك فلم يقبل من أحد شيئاً»[1].

إن سفيان الثوري لم يكن ينظر إلى ذلك المال أنه مال حرام أو لا يجوز أخذه فهو لم ينكر على من أخذ لأن العلماء الآخرين وآباءه قد أخذوا إلا أن علته كان ما سبق ذكره. لذلك اختار الإمام التجارة لأنه يرى أن الحلال تجارة برّة، أو عطاء إمام عادل، أو صلة من أخ مؤمن، أو ميراث لم يخالطه شيء[2]. فكان يأتي اليمن[3] ليتجر، وكان يفرّق ما عنده على قوم من إخوانه يبضعون له به ويوافي الموسم كل عام فيلقاهم ويحاسبهم ويأخذ ما ربحوا إلا أن هذا ما كان يكفيه لأن كل ما كان بيديه حين توفي نحو من مائتي دينار بضاعة[4]، وقيل مائة وخمسين ديناراً[5]، وقيل: مائة دينار[6].

لذلك كان سفيان ينتظر ما يبعثه إليه أقرباؤه وغيرهم حيث قد يمر عليه أيام ثلاثة دون أن يذوق طعاماً. فقد قال أبو شهاب الحنّاط: «بعثت أخت سفيان معي بجراب إلى سفيان وهو بمكة فيه كعك وخشكنانج، فقدمت مكة فسألت عنه فقيل لي: إنه ربما قعد دُبُر الكعبة مما يلي باب الحنّاطين، قال: فأتيته هناك، وكان لي صديقاً فوجدته مستلقياً فسلّمت عليه فلم يسألني تلك المساءلة ولم يسلّم عليّ كما كنت أعرف منه، فقلت له: إن أختك بعثت إليك معي بجراب فيه كعك وخشكنانج. قال: فعجّل به علي. واستوى جالساً فقلت: يا أبا عبد الله أتيتك وأنا صديقك فسلّمت عليك فلم تردّ عليّ ذاك الرد، فلما أخبرتك أني

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد: ٣٧٢/٦ .
(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي: ٢٣٥ .
(٣) اليمن: إنما سميت اليمن لتيامنهم إليها. وصفة اليمن الخضراء، لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها والبحر مطيف بها من المشرق إلى الجنوب فراجعاً إلى المغرب. (معجم البلدان: ٤٤٧/٥).
(٤) الطبقات الكبرى، لابن سعد: ٣٧٢/٦، تاريخ الإسلام، للذهبي: ٢٣٥ .
(٥) المعارف لابن قتيبة: ٤٩٨ .
(٦) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٢٤١/٧ .

أتيتك بجراب كعك لا يساوي شيئاً جلست وكلمتني، فقال: يا أبا شهاب لا تلمني فإن هذه لي ثلاثة أيام لم أذق فيها ذوقاً فعذرته»[١].

وقد نقل غير واحد أن سفيان كان مستكيناً في لباسه عليه ثياب رثة[٢]. ولشدة ما كان عليه الإمام من فقر قال علي بن ثابت[٣]: «رأيت سفيان الثوري في طريق مكة فقوّمت كل شيء عليه حتى نعليه درهماً وأربع دوانق»[٤][٥].

وقال قبيصة: «رأيت على الثوري كساء ما يساوي درهماً، ورأيت عليه نعلين مخصوفتين قومتهما ديناراً»[٦].

وقال أيضاً: «لو لقيتَ سفيان في طريق مكة ومعك فلسان تريد أن تتصدق بهما وأنت لا تعرف سفيان ظننت أنك ستضعهما في يده»[٧].

ولشدة حاجته قال عنه زيد بن الحُباب: «احتاج سفيان بمكة حتى استفّ الرمل ثلاثة أيام»[٨]. وقال بشر الحافي: «كان الثوري ربما أخذ عِباء الجِمال فيغطي بها رأسه». وقال أبيّ: «أُجِّر سفيان من جمّال إلى مكة فأمروه أن يعمل لهم خُبزة فلم تجئ جيدة، فضربه بها الجمّال، فلما قدموا مكة دخل الجمّال فرأى الناس حول سفيان فسأل، فقالوا: هذا سفيان الثوري، فلما انفضّ الناس تقدّم الجمّال إلى سفيان واعتذر. فقال: من يُفسد طعام الناس يصبه أكثر من ذلك»[٩].

---

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد: ٣٧٢/٦-٣٧٣ .
(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٢٧٥/٧ .
(٣) علي بن ثابت: كان من العمال وكان يحث المريدين على رفض الأثقال ونبذ الأشغال. (حلية الأولياء: ١٤٢/١٠).
(٤) حلية الأولياء، للأصفهاني: ٣٧٨/٦ .
(٥) الدانق من الأوزان، وهو سدس الدينار وسدس الدرهم. (انظر لسان العرب، مادة: دنق).
(٦) الجرح والتعديل، للرازي: ١٠٠/١ .
(٧) صفة الصفوة، لابن الجوزي: ١٤٧/٣ .
(٨) تاريخ الإسلام، للذهبي: ٢٣٠ .
(٩) تاريخ الإسلام، للذهبي: ٢٣٢ .

وروى أن «سفياناً أخذ من رجل أربعة آلاف درهم مضاربة[١] فاشترى بها متاعاً مما يباع باليمن فأخذه فربح فيه نفقته»[٢].

هكذا كانت حالة سفيان الثوري المادية لقد كان يعمل يوماً بيوم حتى يكسب قوت يومه وقد لا يجده، وكان يتحمّل إساءات أرباب العمل حتى يسد رمقه، كل ذلك لأنه يرى الأمن بالفقر حيث كان يقول: بالفقر تخوفوني؟ إنما يخاف سفيان أن تصب عليه الدنيا صباً»[٣].

إنه يعد الفقر نعمة لا نقمة ولا لعنة، ويجد أن القليل يكفي وهذا القليل يجعله نداً لمن أُعطي الكثير، وكان يتمثل هذه الأبيات:

سيكفيكَ عما أُغْلِق البابُ دونَه ... وضنَّ به الأقوامُ ملحٌ وجردقُ[٤]

وتشربُ من ماءٍ فراتٍ وتغتدي ... تعارضُ أصحابَ الثَّريدِ[٥] الملبقُ

تجشى إذا ماهم تجشوا كأنَّما ... ظلَلت بأنواعِ الخبيصِ[٦] تُفتَقُ[٧]

---

(١) مضاربة: أن تعطي إنساناً من مالك ما يتّجر فيه على أن يكون الربح بينكما أو يكون له سهم معلوم من الربح. (انظر لسان العرب، مادة: ضرب).

(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي: ٢٣٥ .

(٣) الجرح والتعديل، للرازي: ٩٩/١ .

(٤) الجَرْدَق: الجَرْدَقة: معروفة الرغيف، فارسية معربة، ذكره الأزهري. (انظر لسان العرب، مادة: جردق).

(٥) الثَّريد: الثّرد. الهَشْمُ، ومنه قيل لما يُهشم من الخبز ويُبَلُّ بماء القِدر وغيره ثريدة. والثَّريد: ما ثُرِدَ من الخبز. (انظر: لسان العرب، مادة: ثرد).

(٦) الخبيص: الحَلْوَاء المخبوصة، وخبص الحلواء أي خلطها وعَمِلَها. (انظر لسان العرب، مادة: خبص).

(٧) تاريخ الإسلام، للذهبي: ٢٣٥ .